

جدلية الإنسان - المكان - الزمان

أ.د. مضر خليل عمر

ليس للإنسان في دنياه الفانية إلا المكان والزمان الذي يعيشه ، ومنذ الأزل وهو يجهد نفسه في استيعاب المكان وإدراكه و فهم الزمن و مجرياته . وأثمرت جهوده هذه العلوم جميعا . فالبعض قد ركز على الطبيعة و مكوناتها ، والآخر انصب اهتمامه على الإنسان و نشاطاته ، و منهم من حاول سبر أغوار الإنسان لفهم كنهه ، والبعض حلق في أجواء فكرية تتأى عن المكان والزمان قصد فهمهما . وفي جميع هذه كان الإنسان و خدمته هو الهدف المعلن وغير المعلن (فرادا و مجموعات) . فدراسة المكان هدفها الإنسان لأنه يعيش فيه وينشط ، ودراسة الزمن لأنه من نتائج حركة الإنسان والمادة (الطبيعة والكون) وتفاعلها مع بعض . في هذا المقال ، نسلط الضوء على العلاقة الجدلية بين الإنسان و المكان والزمان وما تعتق عنه فكر بعض الرجال الذين شغلته هذه الجدلية ردحا من الزمن ، ومن أماكن مختلفة من الكرة الأرضية . وسأبتعد قدر الإمكان عن كتابات الجغرافيين كي أوضح أن المكان ليس حكرا لهم ، بل انه موضوع اهتم به الجميع كل ضمن تخصصه واهتماماته .

الإنسان و المكان

يشير الأستاذ محمد علي المحمود (1) في مقال له عن جدلية الإنسان والمكان إلى أن عنصر المكان " لا يقتصر على الجغرافيا ، وإنما يشمل الواقعة الاجتماعية ككل " وبهذا فله " أهمية كبرى في سياق تحليل الظواهر الإنسانية ، ذات الطابع العام" . وان عنصر المكان "مشدود إلى حقول معرفية لا حصر لها ، حتى وإن كانت هذه الحقول - من حيث المرجعية التخصصية - تتمحور حول تخصصين اثنين ، يشكلان الدعامة الأساسية لها ، وهما علم النفس الاجتماعي ، وعلم اجتماع المعرفة . " وحسب رأيه فانه من عالم " هذين التخصصين ، تستمد معظم الرؤى التحليلية - واعية وغير واعية - آلياتها في مقاربة جدلية الإنسان والمكان" . فعلماء الاجتماع يركزون على دور المجتمع (مجموعة من الناس تربطهم روابط و يعيشون في مكان محدد) وفي زمن محدد . مما يعني أن العلوم الاجتماعية على وجه

الخصوص تتباهى في تخصصها بالمكان وتعدده ملكا لها ، وبهذا لم تعد الجغرافيا بدون منافسين كما يعتقد البعض ويجهل ذلك الكثير .

وركز عمر منيب إدلبي على تبادلية التأثير بين الإنسان والمكان ، " إذ يسهم المكان في تشكيل وعي الإنسان بوجوده ، ويطبع فكره و هويته - وقبل ذلك كله فيزيولوجيته - بطابعه ، فيما يسهم الإنسان في إضفاء خصائص إنسانيته على المكان بتبدل صفاته وبنيته ، وأنسنة فضاءه ، وهذه العلاقة التآثرية المتبادلة تتحول بفعل التعود على مر الزمن إلى علاقة حميمة ، يترك هدمها أو قمعها آثارا كارثية على الطرفين " . وما معاناة المهجرين العراقيين إلا أمثلة متنوعة و أدلة دامغة على الارتباط بالمكان .

فشخصية المكان يرسمها الإنسان ، و خصائص الإنسان و سماته تتحدد بنسب متباينة بالمكان. ولا يعني هذا الاعتقاد بالحتم الطبيعي (الجغرافي) ، بل إن التأثير موجود (سلبا وإيجابا) ولكنه ليس العامل الوحيد و الحتمي ، انه يتفاعل مع عوامل أخرى ذاتية وموضوعية في جدلية صارخة أحيانا و هامسة أحيانا كثيرة . فشخصية الموصلية غير شخصية البصري ، والبغدادي غير ابن العمارة . وفي الوقت نفسه فان شخصية الأبناء في البيت الواحد مختلفة (ومتناقضة أحيانا) . فعند الحديث عن التأثير يقصد به الأكثر احتمالا (المنوال في المصطلح الإحصائي) . ولهذا السبب يقول الإدلبي " ولما كان للمكان حضوره المؤسس والبناء لعلاقات المجتمع بفعل تفاعل الإنسان مع محيطه الجغرافي و أشياءه ، فان للإنسان بالمقابل دوره في تشكيل القيم الخاصة بهذا المكان عبر مجموعة العلاقات والسلوكيات الإنسانية التي تصبح فيما بعد رموزا دلالية تشكل في مجموعها صفات مكان ما " . وللتوضيح نشير إلى أمثلة عن تباين القيم الخاصة بين سكان منطقة الفضل و المنصور مثلا ، وسكان الكرادة و الكريعات في بغداد . وقد رسمها المعنيون بالقيم الاجتماعية و تمحورها مكانيا كجزر حضارية (البعض يسميها ثقافات فرعية) ضمن الحضارة الأم (البغدادية هنا) .

وتقود نشاطات المجتمع قيمه ، العليا منها على وجه الخصوص ، و تتجسد واقعيًا بالتراتبية الاجتماعية التي تصنع المكان والمكانة (محمد علي المحمود) . والدليل على ذلك تاريخيا يعود إلى دويلات المدن حيث التوزيع الاجتماعي - المكاني لسكانها ، ومدرسة شيكاغو للبيئة الاجتماعية التي قدمت الأدلة الإحصائية على الترتيب الاجتماعي - الاقتصادي -

المكاني لسكان المدن الكبيرة . فالإنسان ينظم مكانه ليبرز خصائصه الذاتية والاجتماعية بصيغ مكانية .

ويشير الأب روبير الكرملي إلى " إن الدراسة الفلسفية للطبيعة ليست فقط دراسة موضوع مستقل عن الإنسان ، وإنما دراسة العلاقات أو الحوار بين الإنسان والطبيعة التي هي من حوله ، ومن خلال هذا الحوار تكتمل الطبيعة بمعرفة الإنسان لها ، وان الإنسان يكتمل بمعرفته للطبيعة ، فهناك تعامل جدلي بينهما" . فالفلسفة التي عنت بالطبيعة اقتنعت بأن الطبيعة لا تكتمل إلا بمعرفة الإنسان لها ، ولا تكتمل شخصية الإنسان و إنسانيته إلا بمعرفة الطبيعة ، فهما وجهان لعملة واحدة اسمها الحياة على سطح الأرض .

كان هذا على المستوى الاجتماعي والفلسفي ، أما على المستوى الفردي (الشخصي) فنجد كتاب السير الذاتية يركزون على المكان وأثره على شخصية المبحوث و أفكاره ونتاجه الأدبي أو العلمي . وفي الأدب فان "الفضاء الجغرافي" والإشارة إليه له أهميته في تشكيل الصورة في ذهن و مخيلة المتلقي للتعرف على خصائص الأمكنة وصفاتها . وعودة إلى عمر منيب الذي يؤكد أن عنصر المكان " لا يمكن النظر إليه من منطلق عزلة عن بقية العناصر السردية الأخرى (الزمن ، الشخصية ، ...) ، ولاسيما عنصر الزمن ، إذ (يستحيل وجود مكان ارضي ، أو غير ارضي لا يتضمن كمية من الزمن وجدت بوجوده واستمرت باستمراره) ، كما أن المكان (لا تتجلى ابرز صفاته الجمالية إلا من خلال الزمان والإنسان)" . فعملية الفصل بين الإنسان والمكان والزمان اعتباطية وليست حقيقية .

ويعترف محمد شكري بدور المكان في حياته حيث يقول " لي ارتباط كبير جدا بالمكان ، أنا أقدر ما يسمى بجمالية المكان في القصة أو الرواية على الرغم من أنه مذهب كلاسيكي واقعي ولكني مرتبط جدا بالأماكن ، وأحيانا لا أعرف كيف أكتب حتى أكون جالسا في مكان معين " . فعلى الرغم من عدم اعتناقه المذهب الكلاسيكي إلا انه يقر أهمية المكان له و في كتاباته . أما إدوارد سعيد فقد خرج من المكان ليناور " في أفق البلاغة والفلسفة والسياسة والتاريخ في آن معا ، فهو لا يغادر المكان على مستوى الواقعة ، جغرافيا ، إلا من أجل أن يعود إليه رمزيا ليحتويه ويعلن انتماءه إليه ، وعدم تخليه عنه ، والإمسك به حتى الرمق الأخير" . فالمكان محفور في وعي الإنسان و اللاوعي ، موجود علنا وضمنا في تفكيره وسلوكه .

وعند مراجعة العنوانات الأدبية و الفنية نجد للمكان حضور يلفت النظر ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، المكان في قصص وليد إخلاص ، خارج المكان ، أنا والمكان ، البئر الأول ، فلسفة المكان في الشعر العربي ، فاعلية المكان في بناء القصيدة عند ذي الرمة . وعلى مستوى المسلسلات التلفازية نجد : بنت الحتة ، بين القصرين ، قصر الشوق ، باب الحارة ، أين مكاني والعديد غيرها .

أماكن والزمان

لقد شغل موضوعي المكان والزمان الفلاسفة من القديم ، وهم متفقون على إنهما من أشكال المادة ، ولكنهم منشغلون في جدل مفاده : هل هما حقيقيين أم إنهما تجريدان لا يوجدان إلا في وعي الإنسان ؟ ويرى البعض أنه بمجرد الادعاء بوجود الشيء (جسم) نكون قد حددنا مكانا معيناً له ، ولهذا فإن المكان هو ما يتعلق بالآين ، وبالتالي يحدد خاصية معينة لشيء معين كالمادة . ولهذا يخلص عبد الغفور بالريوسول إلى القول " فالمكان ليس جسماً ، بل هو الشرط الأساسي لكيان الجسم ، إذ لا يمكننا أن نتصور جسماً ما إذا لم تنطبق عليه شروط مكانية (حجم ، طول ، ارتفاع ...) ومن ثمة نستطيع انطلاقاً من دراسة حالة الجسم أن نفهم أو نستنبط الكثير عن المكان " . (2)

وجاء اينشتين بالنظرية النسبية لترتبط المكان بالزمان وتظهر مفاهيم تتجاوز الاستيعاب الإدراكي الحسي لتظهر الحقيقة في معادلات رياضية جد مجردة و معقدة . فالمكان والزمان عنده لا يوجدان بنفسيهما معزولين عن المادة بل هما جزء من العلاقة المتبادلة المتشابكة الكلية التي يفقدان فيها استقلالهما ويبرزان كجانبيين نسبيين للزمان والمكان المتكاملين اللذين لا ينقسمان . و ترى الفلسفة المادية أن لا وجود للحقيقة خارجهما (المكان و الزمان) . لذا فالوجود مرهون بالمكان والزمان .

أما الفيلسوف كانط (كانت)(3) فيرى أن الزمان ليس تصوراً كلياً ، ولكنه شكل خالص للعيان الحسي . وذلك لأن المرء لا يستطيع أن يتصور غير زمان واحد وحدي ، أما الأزمنة المختلفة فليست إلا أجزاء لهذا الزمان ، وإذا كان الزمان واحد ، فهو لا يقبل أن يكون ذا تصور بل عيان . ويضيف " إن الأشياء في ذاتها لا تأتي إلى عقولنا كما هي دون تغيير ، بل لابد أن

تمر بهذا الإطار ، إطار الزمان والمكان ، فتترتب وفقا له ، فكأنما بمجرد أن تصبح مدركة ، لابد أن تظهر على هيئة الزمان و (المكان) ، ونحن لا نعرفها كما هي في ذاتها ، بل كما تبدو لنا ولهذا فنحن لا نعرف إلا الظواهر " . ويجد أن المكان واحد فريد في جوهره ، والتعددية فيه تستند فقط على التحديات ، ويعني هذا أن المكان عنده حدس أولي ولا يتعدد المكان ذاته . وأن المكان ليس في الحقيقة لا متناهايا ، وهو يدور شأنه شأن سطح الكرة الأرضية . وخلافا عن الزمن ، فإن المكان قابل للانعكاس حيث نستطيع السير فيه باتجاهات متعاكسة ونستطيع العودة إلى نقطة البداية .

ويخلص كانت إلى القول " إذا كان المكان والزمان ثابتين بالمعنى العام للوجود حيث المكان الذي لا يحويه مكانا إلا نفسه . أما الزمان فسائر بالوجود . وأن التغيير الذي يحدث ليس منهما ، وإنما من المادة القابلة للتغيير والانتقال ، إلا أن المادة لا تقوم بذلك لولا الحركة التي فيها . إذن الحركة والتغيير هما سبب الإحساس بالمكان والزمن . ولسنا في مجال الغوص في جدليات فلسفية معمقة ، بل عرض مبسّس لبعض الآراء والأفكار ذات الصلة ، ولهذا يجدر بنا وبإيجاز ، استخلاص السمات والحجج التي عرضها الفلاسفة :-

• حجج المكان

- المكان ذو أبعاد ثلاثة ، أما الزمن فليس له إلا بعد واحد
- يعبر المكان عن توزيع الأشياء الموجودة وجودا تلقائيا
- يعبر المكان عن تتالي الظواهر
- من الممكن تخيل لا شيء في المكان ، ولكن من المستحيل تخيل لا مكان .
- المكان ليس تصورا تجريبيا ، هو مجرد من التجربة الخارجية ، وذلك لأن المكان مفترض مقدما في دلالة الإحساسات على شيء خارجي ، والتجربة ممكنة فقط من خلال مثول المكان .

- المكان تمثل ضروري أولي ، يشكل الأساس لجميع الإدراكات الخارجية ، إذ لا يمكننا أن نتخيل أن ليس هناك مكان ، ومع ذلك يمكننا أن نتخيل اللاشيء في المكان .

- المكان ليس تصورا منطقيا أو عاما للعلاقات بين الأشياء بوجه عام ، إذ أن هناك فقط مكان واحد ، تكون ما ندعوه " أمكنة " أجزاء له وليست أمثلة .

• حجج الزمان

- يعبر الزمن عن تتابع الظواهر حيث تحل الواحدة محل الأخرى
- الزمان لا يرتد ، بمعنى أن كل عملية مادية لا تتطور إلا في اتجاه واحد من الماضي إلى المستقبل
- إن الحركة هي ماهية الزمان والمكان ، وإن المادة و الحركة و الزمان والمكان لا تنفصل عن بعض .
- بما أن المادة مرئية والزمان غير مرئي ، فهو ليس مظهرا من مظاهرها ، وإنما هو متطلب شرطي مستقل و متداخل لها ليس إلا .
- تأنيب الضمير يعبر عن عجز تجاه الماضي ، و هو في الوقت نفسه يعبر عن بعد التقدم .

• الزمكان (4)

- مصطلح حديث منحوت من كلمتي الزمان والمكان ليعبر عن الفضاء رباعي الأبعاد الذي أدخلته النظرية النسبية ليكون فضاء الحدث بدلا من المكان المطلق الفارغ في نظرية الكم .
- والمصطلح ببساطة شديدة يعني السفر عبر الزمان والمكان في آن واحد .
- من خلاله جاءت فكرة السفر عبر الزمن ، لتمنح الإنسان أملا خياليا في تغيير حاضره و مستقبله ، بل وربما مستقبل العالم أيضا .

الإبداع الإنساني في المكان والزمان

درس كونار تورنكفست Gunnar Tornqvist (⁵)مائة عالم نال جائزة نوبل ، ومن جنسيات مختلفة وفي أزمنة متباينة . درس سيرهم الذاتية قاصدا معرفة العوامل الموضوعية (البيئية) التي ساعدت على نبوغهم و تقدمهم على غيرهم في الأداء و الأفكار . لقد بحث عن ظروف المكان والزمان اللازمين للإبداع الفكري . لا أريد أن أخص البحث ، ولكنني اعرض أبرز ما جاء فيه من نتائج .

- بالنسبة للعديد من العلماء المميزين كان للمدرسة أهمية خاصة في حياتهم . فهم يتحدثون بحرارة عن كفاءة مدرسيهم الذين أيقظوا الاهتمامات فيهم وأثروا على تركيزهم في دراستهم اللاحقة . وكانوا يتحدثون عن المدارس بتخصص معين و طلب محدد ، لذا تحدوا قدرات الطلبة الآخرين بما فيهم الممنوحين هدايا و جوائز في تلك المدارس . إذن المدرسة كمكان تعلم وبمواصفات معينة كانت عاملا بارزا في الإبداع الفكري لهؤلاء العلماء . فمدارس المتميزين يمكن أن تكون أماكن نبوغ وإبداع وتنافس يثمر الخير للبلد والعلم .

- إن بيئة الإبداع يجب أن ينظر لها مبدئيا كأماكن و مجاميع جذبت الكفاءات ضمن تخصص علمي محدد . وتأسست هذه التقاليد ، جزئيا ، نتيجة جذب الأماكن و المؤسسات ذاتها لأشخاص معينين و لفترة زمنية طويلة . وفي حالات محددة ، فقد احتاجت قوة الجذب هذه حوافز و دفعا من أشخاص من خارج الميدان التخصصي ، وكذلك المفكرين . وفي حالات أخرى ، فان قوة الجذب قد تأثرت بالبيئة حيث الفائض الاقتصادي و ظروف العمل الحازمة . وفي الأماكن حيث تتوافق هذه الشؤون فان الجذب يكون قويا بشكل خاص . أي إن مؤسسات علمية (بحثية) معينة قد شكلت أماكن جذب للأذكاء و المبدعين ليلتقوا ويتحاوروا و يتعاونوا و يبدعوا . والمراكز والوحدات البحثية هي المقصودة ، إضافة إلى النوادي الخاصة برجال العلم و المفكرين .

- إن التعدد و التنوع يعززان العمليات الإبداعية ، بينما التشابه و التوحيد أُنسقي التجانس لا يعملان ذلك . والعديد من الأمثلة الموثقة قد أعطت انطبعا خاصا بان بيئة الإبداع في بعض الأوقات كانت عبارة عن فوضى . والملاحظة الهامة التي أخذت عن العملية الإبداعية و التجديد الشامل بأنهما يبدأان حيثما تتطابق الكفاءة المميزة و صلات حميمة مع حالة اللا استقرار و اللاضمان . وهناك الكثير عن تضمين كل عملية إبداعية ، وسواء أكانت معنية بالابتكار التقني أو تغيير جذري في البحث أو فن جديد ، تضمينها لما يمكن تسميته باللا استقرار البنوي . و هذا اللا استقرار البنوي يسهل عملية خروج الأفكار عن النمط الموجود و الضوابط الصارمة المحيطة بها . هنا جاء الزمن ، الزمن الصعب ، سيادة الفوضى والخروج عن المؤلف ، والحاجة لإثبات الوجود والخروج إلى العالم الذي أصبح بأمس الحاجة لشيء يبهره و يجعل أنفاسه تقف وروحه تستكين ، وبالتالي تتلاشى الفوضى . فالتنوع والتعدد مصدر قوة اقتصادية واجتماعية وحضارية ، ولكنه نقطة ضعف عندما يستغل لأغراض سياسية دنيئة .

- الظاهرة المميزة في مختلف السير الذاتية تركيزها على أهمية البيت و المدرسة في إيقاظ و تطوير الطاقة الإبداعية عند الأشخاص . وبتتبع حياة مبدعين فرادا و ما توحيه سيرهم الذاتية ، فهناك حالات عامة تؤثر على جغرافية الإبداع . وهي : العلاقات حيث أدركتها جيدا الدراسات السابقة عن البيئات . و المعطى الجديد المضاف هو الفائض الاقتصادي ، و أهمية سماح البيئات المختلفة للبدائل و الفرص للخروج عن المؤلف في القيم و أنماط الأفكار . و الملاحظة الأخرى أن المناقشات و اللقاءات تسمح بتجمع الأشخاص المبدعين مع بعض و تشكيل أفكارا يمكن أن تقود إلى تجديد شامل . و بالختام فهناك سبب وجيه لتكرار القول : كيف أن عددا قليلا من مسارات حياة أشخاص يعكس التغيرات الجذرية في المجتمع الأكبر . نجد هنا المكان بأكثر من صيغة ، المنزل ، المدرسة ، أماكن اللقاء (نوادي ومكتبات) ، وبالتالي انشغال هؤلاء المبدعين عن من سواهم بالعلم دون الانخراط بمسارات الفوضى السائدة في زمانهم .

مجرد تساؤلات

وفي الختام ، لقد أثار الموضوع كوامن وشجون و محطات بحاجة إلى أن نقف عندها لنراجع أنفسنا ونكون صريحين معها ولو لمرة واحدة . والتساؤلات هذه مجرد تساؤلات لا غير ، فلا ضير من عرضها .

- هل أدركنا ماهية المكان ؟
- هل استوعبنا علاقتنا به ؟
- ما السبيل لتنميته ؟
- أليس التنوع مصدر قوة ؟ لماذا نسمح لأن يكون نقطة ضعف ؟
- هل يمكن أن تشع عن اللااستقرار و الألمان الحاليين في وطننا ومضات إبداع تعيد الثقة وتطمئن بالنفوس الحائرة ؟
- أليس الحوار سبيل جيد لحل المشكلات والنهوض من الكبوة ؟
- أليس المسكن موضوعا جيدا للدراسة كمكان ؟
- أليست المدرسة بحاجة إلى دراسة كمكان ؟ لنعيد لها مكانتها وأهميتها .
- ألسنا بحاجة إلى الاهتمام بأماكن يلتقي بها من نأمل بهم خيرا و نحميمهم من شذاذ الآفاق ؟
- السنا بحاجة إلى مبدعين ينقذونا من محنتنا ؟ ولا أقول سياسيين و العياذ بالله .
- السنا بحاجة إلى مراكز و وحدات بحثية تجمع من يريد خدمة بلده بعلمه و يطور نفسه و بالتالي المؤسسات التعليمية في البلد ؟ ولا أقول الإبداع رغم انه الهاجس و المقصد .

¹ محمد بن علي المحمود ، التقليدي .. جدلية الإنسان والمكان ، جريدة الرياض الخميس 21 رجب 1429 هـ - 24 يوليو 2008م - العدد 14640 ، <http://www.alriyadh.com/2008/07/24/article361883.html>

² <http://www.marxists.org/arabic/glossary/terms/11.htm>

³ <http://www.alqosh.net/ssh49.htm>

⁴ <http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%85%D9%83%D8%A7%D9%86>

⁵ Tornqvist, G. , 2004 : Creativity in time - and space . Geogr. Ann. , 86 , B (4) : 227-243 . Gunnar Tornqvist , Department of Social and Economic Geography , Lund University , Solvegatan 12 , 223 62 Lund , Sweden ,